ثلاث روايات عن مرقد مريم العذراء

فؤاد يوسف قزانجي
استاذ في التاريخ والمعلومات

لعله لا توجد امرأة يكن لها المسيحيون والمسلمون عظيم التقدير والحب والقداسة مثل مريم العذراء ام السيد المسيح ، وقد ذكرت مرات عديدة في القرآن الكريم خاصة في سورة مريم مشيرة الى صفاتها في القداسة والعفة والتقرب الى الله . إما المسيحيون فقد أحبوها بشكل لا يوصف حتى غدت شفيعتهم الدائمة ، ولذلك تجد صورتها او ما شابهها معلقة في معظم البيوت المؤمنة ، لكن أغلب الناس لا يعرفون مثواها الأخير . وعلى الرغم من ان الكنيسة الشرقية قد أكدت ان مرقدها يقع في أورشليم (القدس) ، فأن هنالك رواية اخرى تشير الى وجود قبر أخر لها في مدينة أفيسوس (أزمير) ، كما ان مرقداً ثالثاً وجد في جانب الكرخ باسم(مريم بنت عمران) .

ولدت مريم العذراء في أورشليم من أب كاهن في معبد أورشليم يدعى يواقيم وام تسمى حنة ، ودعيت مريم بمعنى (السيِدة) او (السلطانة) ومن أسمائها بين الناس في العالم العربي ماري وماريا وميري وعذراء وفيرجين وبتول وطاهرة وغيرها . وأرجح الروايات ان مريم انتقلت الى باريها وهي في التاسعة والخمسين من عمرها ، وكان رسل (حواري) المسيح مجتمعين حواليها يوم وفاتها في أورشليم (القدس) اذ أنهم لم يتفرقوا تاركين أورشليم الا في أيام اضطهاد الحاكم هيرودس أغريبا سنة (٤٢ م)، فتكون إذن العذراء مريم قد رقدت في وادي يهوشافط حيث شيدت كنيسة الانتقال على مقربة من مثواها في جبل الزيتون . وهو المرقد الذي يحج إليه المسيحيون .

إما الرواية الأخرى ، التي اعتز بها أهالي مدينة افيسوس (أزمير) فتشير الى ان مرقد مريم العذراء قد وجد في مدينة افيسوس التي كانت من اهم المدن الرومانية الشرقية بعد إنطاكيا على أساس ان الرسول يوحنا كان قد سافر الى افيسوس مصطحباً مريم العذراء معه ، لان السيد المسيح كان قد أوصاه برعايتها . لكن يوحنا في الحقيقة لم يبق في أفيسوس إلا زمنا قليلاً قبل موته على اثر الاضطهادات اليهودية لأتباع المسيح بين الأعوام (٣٦ ــ ٤١م) إما المرقد الثالث لمريم العذراء فقد وجد في العراق ، وعلى الرغم من صعوبة الجزم في صحته ، فإننا سنرى ان وجود المشهد في بغداد له ابعاده التاريخية والمسيحية المهمة .

" يقع مرقد (مريم بنت عمران) في جانب الكرخ ببغداد وقد باشرت هيئة تمثل المؤسسة العامة للآثار والتراث في ٥/٢ / ١٩٨٤ في التنقيب والتأكد من حقيقته . وعند الحفر وجدت الهيئة رخامة وعند قلبها ظهر عليها صورة أسد منحوت بنحت بارز في رقبته سلسلة وفي ظهره طائر بهيئة نسر او صقر وان مقدمة لوح الرخام كان بهيئة نصف عقد مدبب . وتبين ان القبر مشيد بشكل صندوق من الآجر ، وتم النزول بالحفر الى عمق مترين ونصف المتر عن مستوى صبة الأسمنت ، فظهرت طبقة من التراب النظيف ثم ظهرت الجمجمة وتحتها آجرة وباقي عظام الصدر والمنكبين ، وبعدئذ تم تصوير الهيكل العظمي . وقد عمل صندوق من الخشب للمحافظة على بقايا الرفات ، وعند الحفر لإنزال الصندوق عثر على قطعة من الرخام الأسود مطعمة بالرخام الأبيض عليها زخارف هندسية ، وهي قطعة فنية يعود تاريخها الى القرن الثاني او الثالث الميلاديين."

وهذا الاكتشاف يدلل على حقيقتين الأولى ان قرية بغداد كانت موجودة ومأهولة في الأقل منذ القرن الثاني الميلادي ، والحقيقة الثانية تؤكد ان المسيحية وصلت في وقت مبكر الى العراق وذلك على يد مار ماري تلميذ حواري المسيح مار ادي وذلك بين ٦٠ ــ ٨٢ م والذي دفن في بلدة دير قنى الزائلة قرب العزيزية .

تعلموا من هذا البنغالي الفقير!

د. عبدالله المدني
محاضر اكاديمي - البحرين

على العكس من آسيا، تبدو القارة الإفريقية متخلفة عن الأخيرة بسنوات ضوئية في شتى الحقول والمجالات، بحيث يندر فيها وجود نموذج يعتد به إذا ما استثنينا نموذج جنوب إفريقيا. فتاريخها الاستقلالي ليس سوى مزيج من الحروب الأهلية والانقلابات العسكرية والمذابح العرقية والأنظمة القمعية وخطط التنمية المتخبطة التي تظللها مظاهر الفساد والتسيب والانفلات الأمني ناهيك عن مظاهر الجوع والأمية والفقر والمرض. ولعل هذا ما دفع مفكر إفريقي بارز مثل الكيني "علي مزروعي" ذات مرة إلى المطالبة علنا بإعادة استعمار القارة السمراء، متسائلا في الوقت نفسه عما إذا كان المستعمر القديم على استعداد لقبول الفكرة وتحمل تبعاتها المرهقة.

ومن بين الملفات التي يختفي خلفها المسؤولون الأفارقة لدفع المسؤولية عن أنفسهم، ملف التصحر الذي كثيرا ما يشار إليه كسبب لتخلف أجزاء من إفريقيا ووقوعها فريسة للجوع والمرض والتخلف. غير أن ظاهرة التصحر لا تقتصر على إفريقيا وحدها، فنسبة ٤٥ بالمئة من أراضي آسيا تشكو هذه الظاهرة مقابل ٣٣ بالمئة في إفريقيا، وبرغم ذلك فان الأحوال في آسيا أفضل بكثير كنتيجة للجهود الذاتية واستثمار المساعدات الدولية بصورة مثلى ووجود الخطط المسنودة بالإرادة والعزيمة والإدارة النزيهة والتوعية الجماهيرية. ثم أن التصحر ، خلافا لما قد يتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى، ليس مشكلة طبيعية ناجمة عن الجفاف ونقص الأمطار بقدر ما هو نتاج عمليات متصلة من تدهور الأرض والبيئة التي يلعب الإنسان دورا أساسيا فيها من خلال الإفراط في الزراعة والرعي الجائر وقطع الأشجار وسوء استغلال الموارد المائية وغيرها من الأنشطة غير المدروسة الناجمة عن قلة الوعي والثقافة البيئية.

والمؤمل الآن أن تحقق الجهود التي سيقودها الأمين العام السابق للأمم المتحدة كوفي أنان من اجل ثورة خضراء في إفريقيا شيئا يمكن للقارة السمراء أن تتباهى به مستقبلا. فالرجل الذي ترك منصبه قبل ستة اشهر من بعد ولايتين كاملتين، ولم يعد إلى وطنه للمزاحمة على المناصب الرسمية أو الاشتغال بالسياسة كما فعل معظم أسلافه، أعلن من مدينة كيب تاون الجنوب افريقية هذا الشهر قبوله قيادة "التحالف من اجل ثورة خضراء" والذي تأسس في العام الماضي بمنحة أولية بمبلغ ١٥٠ مليون دولار من مؤسسة "بيل جيتس" الخيرية وصندوق روكفلر، بهدف محاربة الجوع وتآكل التربة ونقص المياه وتحسين نظم الزراعة والتشجير والري والنقل وتخزين المحاصيل وإدارة الأراضي الزراعية في إفريقيا.

وفي اعتقادنا أن أنان هو الشخص المناسب لإدارة هذا التحالف لأكثر من سبب، لعل أبرزه اهتمامه الشخصي بهذا الملف والذي تجلى في خطة قدمها إلى قمة الاتحاد الإفريقي في أديس أبابا قبل ثلاث سنوات بهدف زيادة معدلات الإنتاج الزراعي في القارة بنسبة ٦ بالمئة كل سنة حتى عام٢٠١٥ ، ومقترحات أخرى جديرة بالاهتمام أوردها في كلمة ألقاها في عام ٢٠٠٥ بمناسبة يوم البيئة العالمي، ناهيك عن مبادرته إلى تخصيص قيمة جائزة الشيخ زايد الدولية للبيئة التي فاز بها في عام ٢٠٠٣ للإنفاق على مشاريع الزراعة والتشجير والتثقيف البيئي في إفريقيا من منطلق أن "الشعوب الإفريقية في حاجة إلى ثورة خضراء لأنه لا توجد لديها وسائل أخرى أكثر فعالية للتنمية" بحسب تعبيره.

وفي هذا السياق، من المهم للتحالف الناشيء أن يدير وجهه صوب آسيا للاستفادة من دروسها الكثيرة في هذا المجال. هذه الدروس التي لا تقتصر على ما قامت به الحكومات المركزية أو المحلية – مثل الثورة الخضراء في الهند، التي أطلقتها نيودلهي في السبعينيات، فنجحت بحلول التسعينيات في تحقيق الاكتفاء الذاتي من الطعام بل وضع البلاد في المراكز الأولى على مستوى العالم لجهة تصدير الأرز والخضراوات والألبان ، ومثل خطط الحكومة المحلية لإقليم تانغقو الصيني التي نجحت بالعلوم والتقنيات الحديثة والأموال في تحويل ملايين الأمتار المربعة من الأراضي المالحة والقلوية التي لم تعرف اللون الأخضر منذ أوائل القرن الماضي إلى غابات وحدائق ومساحات خضر مليئة بشتى أنواع الأشجار والزهور والنباتات –وإنما تشمل أيضا مبادرات فردية كثيرة قامت بها مؤسسات خاصة مهمومة بالبيئة والزراعة، بل أفراد من البسطاء المعدومين مثل المواطن البنغلاديشي "كارتيك برامانيك" الذي تستحق قصته أن تروى لأنها تقدم نموذجا لما يمكن تحقيقه من نجاحات بإمكانيات فردية جد متواضعة.

وبرامانيك ليس سوى حلاق فقير من بين آلاف الفقراء الذين تعج بهم مقاطعة " تشاباي نواب غني" البنغلاديشية، لكنه يتميز عنهم بعشقه الشديد للخضرة والتشجير، وذلك من منطلق إيمانه القوي بأن زراعة الأشجار في بلد فقير مثل بنغلاديش عملية حيوية وحاسمة ويمكن أن تخدم مواطنيه بطرق مختلفة في سعيهم لتخفيف أعباء الفقر والحاجة وتامين البقاء على قيد الحياة.

فمنذ أن كان طفلا صغيرا غرست فيه أمه مبدأ أن الأشجار هي رمز الحياة والعطاء والخصوبة، وان زراعتها هو ضرب من ضروب العبادة والتقوى والورع. وهكذا دأب برامانيك منذ أن كان في سن العاشرة على استغلال أية فرصة لزراعة الشتلات الخضر في أي فضاء تقع عليه عيناه، الأمر الذي تحولت معه المنطقة التي يسكنها بمرور الزمن من منطقة قاحلة جرداء إلى جنة خضراء مليئة بشتى أنواع الأشجار، ومن بينها الشجرة الأولى التي زرعها والتي يبلغ عمرها اليوم ٥٥ عاما.

وبسبب جهوده الفردية هذه، ذاع صيته وصار قدوة للكثيرين من مواطنيه، بل حاز هذا العام جائزة قناة "آي" التلفزيونية المالية التي تقدم سنويا لأفضل شخصية محلية ذات إسهامات بيئية مشهودة، وهو ما أغرى إحدى شركات الأدوية في بنغلاديش بمنحه ضعفي قيمة الجائزة، ليصل مجموع ما تسلمه إلى ١٥٠ ألف تكا. وتعليقا على الاحتفاء به، قال براماتيك انه لم يقم بما قام به من اجل الجوائز والمكافآت، ولم يكن ينتظر تكريما، وإنما فعل ذلك لقناعته الشديدة بأنه لو حاول أي فرد أن يزرع في مشوار حياته خمس شجيرات في الأقل لانتشرت الخضرة والغابات ولتغيرت صورة البيئة ولخفت معاناة الكثيرين. ولهذا فانه قرر فور تسلمه مكافأته المالية أن ينفقها في شراء المزيد من الشتلات الزراعية لغرسها في الأراضي الفضاء، برغم فقره وعوزه.

إن "التحالف من اجل ثورة خضراء" لو تمكن فقط من خلق مثل هذا الوعي البيئي الغريزي الذي يحمله برامانيك وينطلق منه في جهوده التطوعية المشهودة نحو زيادة رقعة الغابات والمساحات الخضر، لربما تغيرت صورة إفريقيا ولخفت معاناة شعوبها كثيرا. ولا حاجة لنا هنا للتذكير بأن غياب الوعي البيئي هو الشريك الأهم للتصحر والجفاف والجهل والتخلف المسبب للكوارث في القارة السمراء.

عندما كان الدكتور عبد الأمير العبود وزيراً

الحلقة الثالثة

كاظم حبيب
كاتب سياسي - المانيا

كل عراقية وعراقي يغادران العراق لأغراض الدراسة يكونان متشوقين للعودة إلى الوطن والمشاركة في الحياة العملية وخدمة الشعب بعد أن يكونا قد تلقيا العلم والثقافة الحديثة وما يؤهلانهما لأن يمارسا دوريهما في الحياة العامة. وغالباً ما كان العراقيون يصطدمون بمصاعب جمة للتعيين والعمل في المجالات التي اختصوا بها وتذهب الكثير من الأحلام الوردية أدراج الرياح. وكثيراً ما فكر البعض الكثير بالعودة إلى الخارج والعمل والعيش هناك. ومن جراء ذلك خسر العراق الكثير من الكفاءات العلمية والأدبية بعد أن يكون قد صرف على كل منهما مبالغ طائلة. وكانت إشكالية خريجي البلدان الاشتراكية واحدة من أبرز المعضلات إذ كان تعادل الشهادات يستغرق وقتاً طويلاً وتقف بوجه العائد الكثير من العقبات. إلا أن الدكتور عبد الأمير العبود لم يصادف هذه العقبات وكان محظوظاً إذ تعين بعد أقل من عام من عودته إلى الوطن واحتل موقعه كمدرس للاقتصاد في جامعة البصرة. كان ذلك في فترة حكم عبد الرحمن عارف حيث كان القوميون الناصريون في السلطة. ولكني واجهت الكثير من المتاعب حين فشلت في الحصول على عمل في المؤسسة العامة للصناعة برغم المقابلة التي أجريت لي مع لجنة من خبراء أجانب أشروا بضرورة تعييني بسبب درجة الامتياز التي منحت لنتيجة تلك المقابلة إذ أن رئيس المؤسسة العامة للصناعة ورئيس المؤسسة الاقتصادية رفضا تعييني ولم يقدما سبباً لعدم التعيين فاشتغلت بأجر يومي في الدائرة الاقتصادية التابعة لوزارة الزراعة. وكانت ثلاثة عوامل تقف حائلاً دون التعيين: البلد الاشتراكي الذي تخرجت فيه وانتمائي للحزب الشيوعي العراقي إضافة إلى عامل ثالث معروف للجميع.

الدكتور العبود يحدثنا في هذا الجزء من الكتاب عن تعيينه في الجامعة وحياة الطلبة والطالبات وعبور النهر للوصول إلى الجامعة وظروف التدريس والمحاضرات والنشاط العلمي الذي تميز به في هذه الفترة كأي خريج نشط جديد. ألا أن وصول البعث إلى السلطة في عام ١٩٦٨ قد جعل الأمور أكثر صعوبة وتعقيداً إذ ينقل لنا معلومات صادقة ومعروفة لمن كان يعمل في سلك التعليم الجامعي منها مثلاً:

•قيام بعض الأساتذة بالوشاية وكتابة التقارير عن زملائهم الأساتذة للإيقاع بهم بهدف الحلول محلهم أو لمشكلة شخصية وقعت بين الزملاء.

•تنامي عدد الجواسيس والعيون التي تراقب تحركات الطالبات والطلبة والأساتذة والإدارة.

•العمل من أجل فرض الانتماء لحزب البعث لا على الطلبة فحسب بل محاولة فرضها على الأساتذة.

•بروز العنف في سلوك أجهزة الأمن وتجلياتها في اعتقال الطلبة والطالبات وإخضاعهم للتعذيب والاعتقال لفرض تخليهم عن معتقداتهم الفكرية والسياسية.

•اغتيال أو اعتقال الأساتذة وإعدام البعض منهم أو تغييبهم.

وفي استعراضه حالة المجتمع في البصرة في فترة حكم البعث يشير إلى أن العنف والإرهاب والقمع هي الوسائل التي مارسها البعثيون ضد فئات المجتمع على امتداد الفترة التي كانوا في السلطة ويورد ما يلي:

" وبعد عام ١٩٧٧ اتخذت إجراءات البعثيين منحى جديداً متميزاً بتطبيق المزيد من إجراءات الاضطهاد والعنف والحرمان للمواطنين الذين يرفضون الانتماء إلى تنظيمات حزب البعث وقد اقترنت تلك الإجراءات بحملات الملاحقة والاعتقال والإعدام للأكراد من أتباع الحزب الديمقراطي الكردستاني ثم شملت المتهمين بالانتماء إلى الحزب الشيوعي العراقي. كانت أجهزة الأمن تسحب الطلبة والطالبات من صفوفهم ومن أروقة الجامع من دون أن يعلم أحد عن مصيرهم، وما أن حل عام ١٩٧٩ حتى بدأت حملة شرسة لملاحقة واعتقال وإعدام أتباع التيار الديني الشيعي بخاصة أنصار حزب الدعوة الإسلامية وما أن أعلنت ثورة الإيرانيين على حكم الشاه بقيادة آية الله الخميني حتى بدأت التحضيرات للحرب على إيران وفي حينها اعتقل أخي الأكبر عبد الكاظم وعذب ولم أجد سبباً منطقياً لذلك الاعتقال." (الكتاب، ص ١٥٢). ونتيجة تلك التقارير وتردي الأوضاع وإعدام أخيه المعتقل وابن أخيه أزيح الدكتور العبود عن مركز عميد كلية الاقتصاد.

وفي جزء آخر من الكتاب يعرض لنا الدكتور عبود حالة العراق في فترة الحرب العراقية –الإيرانية والمآسي التي تعرض لها الشعب عبر نشاط أجهزة الأمن وخاصة مطاردة أولئك الذين كانوا يحملون الجنسية العراقية المؤشر عليها بحرف (ب) أي أنهم من التبعية الإيرانية وكيف أن أجهزة البعث قتلت دفعة واحدة أكثر من ٨٠٠ إنسان لهذا السبب كان من بينهم ابن أم عباس التي هجر زوجها وبنتان لها واعتقل ابنها ليموت مع آخرين ويدفن ضمن القبور الجماعية. كما عرض علينا جملة من المظالم والقمع التي كانت تتعرض لها العائلات العراقية لأسباب لا يعرفها المتهمون أنفسهم بسبب وشايات لا أول لها ولا آخر. وأورد أمثلة من حياة الناس ومنها حالة السيدة العراقية أم عباس والدكتور محمود جابر أو الدكتور علي الرمضان الذي أعدم بعد عودته من مناسك الحج، وغيرها، ثم يستعرض مصاعب الحرب وسقوط الصواريخ والقنابل على رؤوس الناس في البصرة وفيما بعد في بغداد حيث انتقل إليها هرباً مع أفراد عائلته من القصف الإيراني المتواصل لمدينة البصرة.

وفي فترة الحرب العراقية الإيرانية كان هناك نضال عنيد تخوضه قوات البيشمرگة - الأنصار في كُردستان العراق ضد النظام الدكتاتوري، وكانت هناك عمليات الأنفال الإجرامية التي نفذها الدكتاتور ضد الشعب الكردي وراح ضحيتها عشرات الألوف من الناس الكُرد الأبرياء، وكان ضمنها تلك المجزرة البشعة التي نفذها الدكتاتور وابن عمه علي حسن المجيد (علي كيمياوي) في حلبچة، الذي حكم أخيراً بالإعدام لخمس أو ست مرات بسبب قيادته تلك العمليات وغيرها. إلا أن هذا الحدث لم نجد له أثراً في كتاب الدكتور العبود، فهل لم يعرف به حين حصوله في كُردستان العراق في عام ١٩٨٨، أم أن ذاكرته الذكية لم تستوعب مثل تلك الأحداث الأليمة لتختزنها. لا أدري إن كان العراقيون في هذه الفترة غير عارفين بما كان يمارسه الدكتاتور في كُردستان. يصعب تصور ذلك، خاصة أن الجنود هم في الغالب الأعم من أبناء الوسط والجنوب، كما أن الآلاف من الكُرد قد رحلوا عبر المدن المختلفة إلى "نكرة السلمان"، وكانت الإذاعات تنقل تلك الأخبار. لم استطع أن أفهم هذا الموقف من الصديق الدكتور العبود!

وما أن انتهت الحرب المجنونة حيث امتلأت البلاد بالجرحى والمعوقين والخراب وأصبحت الدور والشوارع موشحة بالسواد حزناً على الذين غابوا ولن يعودا حتى بدأ الدكتاتور الأهوج غزوه العدواني لدولة الكويت الشقيقة وما نجم عنها من حرب الخليج الثانية وما اقترن بها من مشكلات وكوارث جديدة للشعب، ومنها بشكل خاص الحصار الاقتصادي المدمر وموت الكثير الكثير من البشر.

وهنا نستعيد مع الكاتب حالة العراق في التسعينيات حيث الجوع والحرمان والبطالة الواسعة جداً والتضخم النقدي وانهيار سعر العملة العراقية والبطاقة التموينية وقصور الدكتاتور التي لم تكف عن التكاثر في مختلف أنحاء البلاد. وتشتد في هذه الفترة ظواهر السلب والنهب والسطو على البيوت وقطاع الطرق كما يزداد نهب موارد البلاد في الوقت نفسه تزداد عطايا وأوسمة الدكتاتور واحتفالاته بأعياد ميلاده من جهة وقتله الناس وتغييبهم تماماً وتفاقم الفقر والمرض وسقوط القيم الإنسانية من جهة ثانية. ويشتد دور الأجهزة الأمنية والمخابرات في حياة الناس . كتب العبود يقول:

" لم يكن في ما حصل من جراء الحرب عبرة لنظام صدام حسين بل ازداد بطشاً وتقتيلاً بآلاف الشباب وبالرغم من الحصار الجائر الذي طبق على العراق بعد الحرب فقد كان صدام حسين ينفق الملايين من الدولارات التي كان يحصل عليها من جراء تهريب النفط على بناء القصور والإنفاق والبذخ على نزواته وعلى أتباعه من رجال الأمن والمخابرات وقادة الحزب بينما كان الشعب يتضور جوعاً."، (الكتاب، ص ١٦٧). (ملاحظة: صدرت في الفترة الواقعة بين غزو الكويت وبدء الحرب ضد النظام في عام ١٩٩١ ومن ثم في أعقاب الحرب ٣٠ قراراً منها ما هو قبل الحرب ولكن بعد الغزو، ومنها ما بعد الحرب. إلا أن قرار الحصار الاقتصادي صدر بعد الغزو ولكن قبل الحرب وليس بعدها كما يشير الدكتور عبود. إذ كان القرار برقم ٦٦١ في ٦ آب/ ١٩٩٠، في حين أن الحرب بدأت في ٢٠٠٣/٣/١٩، ك. حبيب).

يقدم الدكتور العبود لوحة حزينة وقاتمة ومريرة حقاً، وهو على حق، عن هذه الفترة وما عاناه الشعب من حرمان وفاقة وبؤس. يكفي أن نذكر بأن كثرة من المثقفين الديمقراطيين العراقيين والمستقلين قد أجبروا على بيع مكتباتهم الخاصة لتوفير عيش يومهم أو قيام العائلات الكثيرة ببيع أثاث بيوتهم أو سياراتهم أو حتى أبواب غرفهم الداخلية. لقد كانت فترة عصيبة في حياة العراق إذ فرض حصار ظالم على الشعب بنية إسقاطه ولكن الحصار كان إسقاطاً للشعب في عمق البؤس والمرض والظلمات التي يعاني منها اليوم بشكل صارخ. لا شك في أن الدكتور العبود يصف حالته الخاصة وعمله محامياً ومن ثم كصراف في سوق الصرافين بين إحالة نفسه على التقاعد وترك جامعة البصرة في عام ١٩٨٧ وبين سقوط النظام في عام ٢٠٠٣، حيث تقدم لنا صورة نمطية لحياة مثقف في مثل هذه الأوضاع المعقدة والمتشابكة والمليئة بالمفاجآت غير السارة.

وفي القسم الخاص بالحرب الخارجية ضد النظام الدكتاتوري يشير الدكتور العبود إلى هروب جماهير واسعة من بغداد الى مدن أخرى لحماية نفسها من احتمال ضرب بغداد وما ينجم عنها من موت وخراب ودمار واسع. يصف إقامته مع عائلته في "الكرمة"، هذه المدينة التي تبعد عن بغداد قرابة ٤٠ كيلومتراً، يوماً بيوم ويمنحك قدراً من تصور حالة الإنسان الذي تأتيه الأخبار يومياً وكل ساعة عن الموت الواسع والجثث المتراكمة في الشوارع والدمار الهائل الذي لم يلحق بالمؤسسات والمواقع العسكرية حسب، بل شمل البنية التحتية، بما فيها شبكة ومؤسسات الماء والكهرباء والهاتف والجسور ...الخ، ودور السكن والمدارس والمستشفيات وغيرها.

وأخيراً يكتب الدكتور العبود ما يلي في اليوم التاسع من نيسان ٢٠٠٣ حين وضعت الحرب أوزارها، كما تصورتها الإدارة الأمريكية، ما يلي:

" وفجأة سقط تمثال صدام حسين أمام مشاهدي التلفزيون، وتعالت الزغاريد، وراح الكل يصفق ويرقص احتفالاً بسقوط تمثال الطاغية، لقد كانت فرحة العمر، ولم تسبقها فرحة مثلها، إنه سقوط نظام الطاغية صدام، وانهزام أعوانه وفدائييه الذين تبخروا في لمح البصر ..."، (الكتاب، ص ١٧٨). ولكن ماذا بعد السقوط؟ هذا ما سنحاول تناول ما جاء في الكتاب بشأنه في الحلقة التالية.

صديق آخر هذه المرة

علي حيدر
قاص - الموصل

صباح عادي كأي صباح أخر وأنا في طريقي إلى الدائرة. تسلل هواء بارد إلى داخل السيارة يحمل رائحة غريبة جعلني أحس إنني في مكان أخر. الهواء كان غريبا عني هذه المرة والطريق أكثر ازدحاما منه في باقي الأيام. شوارع كثيرة مسدودة هذا الصباح وطوابير السيارات تمتد وتطول وعدة مفارز للأجهزة الأمنية منتشرة في المنعطفات والإشارات المرورية مذكرة إيانا إننا نحيا في حيز خارج المألوف وخارج السياقات كلها. شئ ما يحدث. أكاد أتلمسه واقبض عليه لكنه يزوغ مني وأبقى في حيرة كأني في مدينة أخرى. كأني في زمن أخر معلق بسقف الاحتمال ومتدل مثل ثمرة ناضجة.الساعة تجاوزت التاسعة والطريق يطول وأقرا في وجوه الناس التي تطل من خلال نوافذ السيارات القريبة علامات السخط والعجز في آن واحد. اعلن جهاز الموبايل عن وصول رسالة. فتحتها. كانت مقتضبة وموجزة جدا (صديقنا فلان قتل قرب بيته). مازلنا في الشوارع الموصدة ومازال المشهد كله معتما ومبهما وغير مبرر بالمرة والسائق يحاول أن يتدبر أمر وصولنا إلى الدائرة وفي كل حين يصلنا دوي انفجار ما أو صوت رشقات الرصاص. لم يكن احد من الموجودين معي في السيارة يعرف صديقي فلان أو سمع به ولم يكن من المجدي إخبارهم بما جرى له لكن هل صحيح انه قتل ؟. كان الحر مزعجا وكل شيء حولي بدا مزعجا بشكل غريب وفكرت بشكل فجائي ربما أصيب فقط وسينجو. ربما محاولة اغتيال فاشلة. ربما شظايا عبوة او سيارة مفخخة لم تؤد إلى قتله فالرسالة لم تذكر أية تفاصيل ربما ثمة أمل وبدأت (الربمات) تتوالد في ذهني وكان احد الجالسين يسرد تفاصيل يومه السابق الذي كان عاديا هو الأخر حيث كان هو وأهله يبحثون عن جثة قريب لهم قتل في انفجار ما في طريق ما في وقت ما من يوم أمس أو أول أمس قال كنا نبحث عن الجثة التي ضاعت أكثر تفاصيلها وأصبحت تتشابه مع باقي الجثث الموجودة في الثلاجة الخاصة وأبدى استغرابا كبيرا لتشابه البشر حين يقتلون في الانفجار إذ لا فرق أبدا بينهم وكان من الممكن إعطاء أية جثة لأي كان على إنها تخصهم اخبرنا. بشكل مطول عن الثلاجات التي يحفظون فيها الموتى ووضعية الجثث فيها وكأنهم مثلجات أو علب المرطبات كانت سخرية مريرة منه في غير مكانها وقال هناك ثلاجة خاصة للرؤوس أيضا سمعته يقول كانت الرؤوس متجمعة فوق بعضها بشكل تل صغير. ملامح صديقي فلان تتقافز أمامي وملامح الأصدقاء كلهم الذين قتلوا أو هاجروا بعيدا وتركوا البلد. الأصدقاء الذين قضيت أعواما طويلة معهم واختفوا. ها أنا أتلمس ملامحهم في كل الوجوه وفي كل لحظة أتحسس مكان وجودهم في روحي التي لا تقتنع ابدا إنهم غادروا مكان وجودي هذا بشكل نهائي وكيف املأ فراغهم ؟. كيف السبيل إلى آخرين يربطني بهم تاريخ طويل من الأهوال؟ ومالذي تبقى هنا سوى فقدانات تتكرس، سوى مغادرات يومية للعديد من الأشياء والأشخاص والأماكن التي تشكل ماضينا الذي شكلنا هو أيضا بدوره على مر الأعوام. كانت عشرات الأفكار تتقافز إلى رأسي ونحن مازلنا في الطابور ننتظر أن يتحرك ولو قليلا كي أصل إلى الدائرة واتصل بأحدهم بمعزل عن الآخرين واتاكد فقط هل قتل فعلا. وفجأة اخرج سائق سيارة أجرة قريبة رأسه من النافذة وصرخ: هذا الشارع كان مفتوحا قبل اقل من ساعة ماذا جرى هل تغلق الشوارع خلال دقائق؟. بعد حين تحرك طابور السيارات قليلا بدأ يزحف ببطء لكن كل شيء في كياني كان جامدا وسكت الجميع. صمت مشبوه ساد ثم تحركت السيارات وعلا صوت المحرك. لوهلة أحسست انه قد مات فعلا. لا أعرف كيف لكني امتلأت بهذا الإحساس. إحساس بارد تسلل إلى روحي. إلى شعيباتها الدقيقة أوحى لي انه ميت الآن وهو في مكان ما خارج حياتنا. كان قبل يومين يسألني عن نوع الموبايل المناسب له وأي نوع يحتفظ ببطارية مشحونة أكثر بسبب شحة الطاقة الكهربائية. تأكيد غريب لا اعرف كيف تسلل إلى مخيلتي وبدأ يردد: مات فعلا. كانت إحدى السيارات محترقة على جانب الطريق وقد أصيبت بعشرات العيارات النارية وبقايا رماد وسواد منتشر حولها قال السائق: لم تكن موجودة من قبل لابد من إنها أصيبت ليلة أمس. لم يعلق احد علي ذلك. أمور كثيرة في غاية الجسامة لم تعد مهمة في الآونة الأخيرة.إذا كانت حياتنا نفسها غير مهمة فما هو المهم الذي قد يعنينا. وصلنا إلى الدائرة أخيرا ولم يكن هناك من يحاسبنا على التأخر فالجميع متأخرون لكن الجميع لا يعرفون ان صديقي قتل وهذا ما يميزني عنهم. وهل هذا تميز؟. اتصلت بأحدهم فورا فقال لي نعم الخبر صحيح.. صحيح جدا. فلان غادرنا نهائيا منذ الصباح الباكر فسألت نفسي ترى أي خلاف هذا الذي يدفع إلى تصفية قاسية كهذه وإنهاء وجود كامل؟. كنت اسأل واعرف أن ليس هناك جواب سيشفى جرحي وأي خلاف أصلا قد يدخل فيه صديقي هذا؟ فمن يعرفه لا يمكن إلا أن يتفق معه على حب الحياة والجمال والعشق الذي لا يخجل من التعبير عنه وهو يدخل أصابعه في فروة شعره رأسه الكثيف ويرجعه إلى الوراء دائما. هكذا هو عاشق أزلي لفتاة لم يعد يهمه أن تبادله المشاعر. مرة قال لي يكفيني إني أحب وأعيش هذه الحالة، أما واقع إنها لا تحبني لم يعد يهم كثيرا،أحيانا الواقع لا يعني كل شيء، لكني في هذه المرة لم أكن متفقا معه،فالواقع هو السيد الآمر الذي يجثم فوق أرواحنا بكل ثقله ويدخل في أدق التفاصيل ويشوهها، الواقع هذا الشيء الجامد الصلب الذي يحطم أحلى أيامنا وأحلامنا ويتركنا وحيدين ومصدومين وأنا لم اعرف ولن اعرف ابدا أية رسالة يبعثها موت رجل كهذا إلى عالم صاخب وهستيري كعالمنا الذي يمضي بنا نحو حتفنا لن اعرف ابدا غير إني اعرف جيدا ان هذا الصباح العادي صار غير عاديا بالمرة.